"مساحات زائدة"

ذهبت قبل عدّة أيام إلى مكتبي، وركنت سيّارتي في الموقف المخصّص لذلك بعد أن ألقيت عليها نظرة تفقّديّة قبل مغادرتي. نحن الرّجال عامّة، نحبّ سيّاراتنا ونرتبط بها عاطفيًا ونهتمّ بها، ولا نحبّ أن نعطيها لأحد. أذكر في أحد الأيام أنني طلبت استلاف سيّارة المرحوم والدي، الذي رفض إعطاءها لي رفضًا قاطعًا وعندما اتهمته أنّه يحبّ السيّارة أكثر منّا، محاولًا استفزازه فأجابني قائلًا: "نعم أنا أحب سيّارتي أكثر منكم".

المهم بعد انتهاء يومي ومغادرتي مكتبي إلى موقف السّيارات تفاجأت أنّ غطاء (طاسة) أحد الإطارات قد اختفت، وأصبح الإطار "عاريًا". غضبت وحزنت، شتمت ولعنت. ازبدت وزمجرت. مشيت في الموقف ذهابًا وإيابًا لعلّي أجد الغطاء لكن بدون فائدة.

فجأة برقت عيناي، لقد تذكّرت. تذكّرت أنني قد رأيت زميلي (خ) يقف بالقرب من مكان وقوف سيّارتي، رأيته يدخّن، ينفث سيجارته وهو ينظر إلى سيّارتي أو بالأحرى إلى إطار سيّارتي.

هل من المعقول أن يكون هو... لا لا، لا أعتقد، لم لا؟! لم لا يكون هو؟! الله يخزيك يا شيطان!

بدأت أراقبه باهتمام شديد.. كانت مشيته مشبوهة، مشيته مشية سارق غطاء سيّارتي، حركاته توحي بذلك، كل العلامات والأدلة ضدّه.

أمضيت ليلتي حزينًا، مفكّرًا كيف سأواجهه بالأدلّة والبراهين، كيف سأوجّه له "الضّربة القاضية؟!"

عُدت في اليوم التّالي إلى المكتب وأوقفت سيّارتي في نفس المكان، نزلت من السّيارة بكلّ حزم وإصرار واستعداد للمواجهة الكبرى.

"أستاذ، أستاذ... التفتّ إلى مصدر الصّوت فإذا به حارس الموقف. لقد وجدت غطاء إطار سيّارتك بعد مغادرة كلّ السّيارات للموقف، عرفت أنّ الإطار لك".

صُدمت.. لقد انهارت كلّ نظرياتي حول زميلي (خ). ماذا بالنّسبة للأدلّة؟! تذكّرت جملة المصريّين "ياما بالسّجن مظاليم".

صعدت إلى مكتبي، وفي طريقي مررت بمكتب زميلي. نظرت إليه فلم أجد فيه شيئًا يشبه سارق غطاء إطار سيّارتي، لا مشيته ولا طريقة حديثه ولا حركات يديه.. وجدته كالأبرياء الأنقياء، فأدركت أنني أنا السّارق! لقد سرقت حُسن الظّن به، اتّهمته بالسّرقة، اتّهمت زميلًا وصديقًا، وجّهت إليه التّهمة دون وعي أو إدراك. اتّهمت رجلًا بريئًا.

أنا متأكّد أنّكم قبلي، تتلقّون كلّ يوم إشعار في هاتفكم أو في البريد الإلكتروني لديكم، إشعار نصّه: "عليك إفراغ بعض المساحة لأنّ الذّاكرة ممتلئة وذلك قد يؤدّي إلى توقّف بعض التّطبيقات والبرامج". فكّرت في ذلك قليلًا، وقلت لنفسي: "ماذا لو أفرغنا ما في نفوسنا من مساحات زائدة، مساحات لا معنى لها، تزعجنا كثيرًا، كظنون وأفكار مسبقة، ذكريات مؤلمة، مشاعر مؤذية، عادات سيئة، ضغائن وأحقاد، أصدقاء سلبيين، زملاء محبطين، كلّ ما هو مزعج في حياتنا. دعونا نعمل صيانة لداخلنا، لأفئدتنا، دعونا ننظفّها من الشّوائب والأحقاد.

وهل نستطيع أن نفترق دون طرفة تعيد لنا الابتسامة على وجوهنا؟

قالوا له: "بالأمس رأيناك تمدح الرّئيس وتقبّل يده، واليوم نراك تمدح الرّئيس الجديد الذي انقلب عليه وتقبّل يده. فما الذي غيّر موقفك؟".

أجاب مستغربًا من السّؤال:

"أنا لم أتغيّر، الرّئيس هو الذي تغيّر!!"

غفر الله لنا ولكم في هذه الأيام المباركة.

أ.أيمن جبارة